الفضيلة بين البدو والحضر

هل نحن ارفع اخلاقا من الغربيين ؟

بقلم الدكتور محمد النوهي

في مقدمة ابن خلدون فصل عنوانه « في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر » . يقرر فيه المفكر الكبير ان اهل البادية ابعد من المتحضرين عن مذاهب السوء ومذمومات الخلق ، وان هؤلاء اكثر شرا واعظم فاحشة ، فهو يرى ان أهل البدو لقربهم من « الفطرة » أقرب الى الطيبة والصلاح ، وأن اهل الحضر « لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء ، في مجالسهم وبين كبرائهم واهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا . »

هذا الرأي القديم لا يزال كبير الذيوع ، يعتنقه العامة ، ويردده احيانا بعض كبار المفكرين . فنجد الدكتور طه حسين في « حديث الاربعاء » ، وفقيدنا الاستاذ العقاد في « شاعر الغزل » ، ونجد غيرهما من كبار كتابنا يقررون ان البداوة تتميز بالعفة ، وان حبها طاهر شريف ، وان الحضارة اشد تحللا خلقيا .

فما نصيب هذا الرأي الرائج من الصحة ، وما مقدار انطباقه على واقع الاحوال الذي تستقريه من الدراسة الدقيقة لاجيال البدو والحضر ؟

معظم الناس حين يتحدثون عن « الفضيلة » يعنون في الاغلب نوعا واحدا منها ، هو الفضيلة الجنسية . كذلك حين يتحدثون عن « الرذيلة » يعنون غالبا الرذيلة الجنسية . فلنبدأ بالتامل في نصيب الحضارة والبداوة من هذه الفضيلة وهذه الرذيلة ، وان لم يكن هذا هو المقياس الخلقي الوحيد كما سنشرح بعد .

اصحيح ان البداوة اكبر عفة جنسية ؟ الحقائق التي تطلعنا عليها دراسة الانثروبولوجيا تشهد بعكس هذا تماما ، وترغمنا على التسليم بأن العفة الجنسية في المجتمع البدوي قليلة واحيانا تكاد لا تكون معروفة . وتقنعنا بان العلاقات الجنسية بين الذكور والاناث في هذه المرحلة من الاجتماع اكثر سهولة واباحية ، وانها لا يتبعها ما نظنه من الفضيحة والعار وسقوط الشرف للرجل او المرأة .

في المجتمع البدوي يكاد كل رجل وامرأة يكونان قد اكثرا من الاتصال الجنسي قبل الزواج ، ويقل ان تكون العروس ما زالت محتفظة ببكارتها . وفي الكثير من الجماعات البدوية يعيش الفتيان والفتيات قبل الزواج في بهو واحد عظيم مشترك ولا يبدأ الانفصال ولا يبدأ توحيد العلاقة الا بعد الزواج . وحتى بعد الزواج يكثر ما نسميه بالخيانات الزوجية ولا تستثير من الزوج ما نعتقده من الانكار والغضب أو الرغبة في الانتقام وتطهير العرض بالقتل ، قتل الرجل المعتدي أو قتل الزوجة الخائنة . بل اقصى ما يتطلبه الزوج ان يدفع له المعتدي غرامة من المال أو الحيوان ، فكأن الامر لا يزيد على اعتداء عادي على حقوق الملك .

هذه هي القاعدة العامة التي تسود الجماعات البدوية على اختلاف اجناسها وتنوع احوالها وتشتت اصقاعها في جنبات الارض . والامثلة كثيرة جدا ، من الجماعات الجزرية في جزر المحيط الهادي الى القبائل الزنجية في افريقيا الى قبائل الاسكيمو في أقصى الشمال . ففي الجماعات القبلية في جزر المحيط الهادي يعيش الفتيان والفتيات في ذلك البهو المشترك الذي وصفناه وتكون العلاقات بينهم مطلقة تمام الاطلاق . وفي بعض قبائل افريقيا اذا تزوجت الفتاة ولها طفل من قبل الزواج وجب ان يدفع خطيبها مهرا اغلى ، كما تشتري البقرة ذات الولد . وفي بعض القبائل الافريقية في اعالي النيل يتجاوزون عن الزنا خصوصا اذا لم يكن الزوجان قد انجبا اطفالا ، ويترك الزوج احيانا الباب الخلفي للكوخ مفتوحا كدعوة صامتة للرجال الاخرين عسى ان ترزق زوجته طفلا « من بين الاشجار » كما يقولون ، فالمهم في مقاييسهم الاجتماعية أن يكون للزوج ولد ، وهو لا يهمه بنفس القدر ان يكون في الحقيقة ولد غيره ما دام ينسب اليه .

وفي بعض القبائل الافريقية والاسيوية يكون من كرم الضيافة ان يعطي المضيف زوجته أو ابنته الى ضيفه لتقضي معه الليلة . وفي بعض الجماعات توجد مواسم يباح فيها للمرأة ان تتصل بأي رجل تهواه . وفي بعض الاعياد يجب ان تتصل الزوجة بزوجها ، فان كان غائبا وجب اتصالها بأي رجل آخر حتى لا يمضي عليها العيد دون اتصال . وهناك كثير من الاديان يكون الاتصال الجنسي ركنا هاما من طقوسها الدينية ، ولا ينحصر بين الزوجين . وهناك اديان تتخذ ما يسمى العاهرات المقدسات ، تضعهن في معابد الالهة ويكون فرضا على زائريها ان يتصلوا بهن كطقس من طقوس العبادة . واهل التبت في بعض اعيادهم يتبادلون الازواج والزوجات . اما لدى قبائل الاسكيمو فالعلاقات مطلقة قبل الزواج وبعد الزواج . يعود الزوج منهم في المساء من صيده ، فيتجه الى كيسه الخاص الذي ينام فيه مع زوجته لكنه يجد رجلا آخر قد سبقه الى احضانها ، فينصرف في هدوء الى اي كيس اخر يجد فيه زوجة لم يصل زوجها بعد .

هذه هي الحقائق التي نحصلها من الدراسة الصحيحة ، والامثلة كما قلت كثيرة جدا ، لو شئنا ان نكثر منها لملأنا صفحات بعد صفحات بسهولة تامة . ومن بقي في صدره شك فليس عليه الا ان يتوجه الى مكتبة جامعية فيمد يديه الى بعض الكتب الموضوعة في الرفوف المخصصة للدراسات الانثروبولوجية لجماعات بعينها ، فيقرأ ما كتبه العلماء بعد دراسة طويلة دقيقة لشتى الجماعات البشرية في مختلف القارات والجزر . وهذه الحقائق وان خالفت الظن الشائع هي ما كنا ننتظره — او كان ينبغي علينا ان نتوقعه — من التفكير المنطقي الهادىء في المسألة . فالانسان في طوره البدوي اقرب الى اصله الحيواني ، والحيوان لا يعرف العفة الجنسية بل يعرف التحلل والشيوع ، فالانسان في هذه المرحلة من الاجتماع اقرب الى العلاقات الطبيعية بين الذكر والانثى التي لا حرج فيها ولا داعي للحياء او الاحتشام . لكنني كما يرى القارىء لم ابدأ نقاشي بهذا النوع من الجدل النظري A Priori بل اعطيت القارىء عددا من الامثلة الاستقرائية المعينة ، وارشدته كيف يستطيع ان يعثر على مئات الامثلة الاخرى ، ومنها ربما يقتنع بصحة ما نقلت عن العلماء المتخصصين ، فاذا اقتنع بالبرهان الاستقرائي فربما يوافقني على الحكم العام الذي استخلصته .

هنا سيحتج القارىء العربي قائلا : لكن ما لنا ولتلك الجماعات النائية تقتنص منها الامثلة للتدليل على صحة رأيك بأن البداوة يتفشى

فيها التحلل الجنسي ؟ انظر في باديتنا العربية في العراق او الشام او السودان او المغرب او غيرها من الاقطار العربية التي تحفظ في بعض رجالها بالمرحلة البدوية من الاجتماع ، او انظر في ريفنا القروي في مصر او غيرها من اقطارنا ، وتأمل تمسك الناس الشديد بالعرض الى حد الانتقام بالقتل من البنت الخاطئة والرجل المعتدي . فهل تريد أن تدعي ان مجتمعنا البدوي او القروي ينطبق عليه ايضا ذلك الحكم العام الذي ادليت به ؟

والجواب ان تمسك باديتنا وقرانا بالفضيلة الجنسية ليس من بداوتها بل هو من اسلامها ، فالاسلام ، هذا الدين السماوي الرفيع ، هو الذي علم العرب التعفف الجنسي ، ولكنه دين محضر ، اعني انه جاء يعادي البداوة ويحارب مقاييسها وقيمها الخلقيه والاجتماعية ويحاول نقل الناس منها الى مرتبة عليا من الحياة الانسانية . ومن قبله كان العرب في جاهليتهم ، اي في طور بداوتهم الصحيح الخالص البداوة على قدر عظيم من التحلل الجنسي والسهولة في العلاقات ، كما تدلنا دراسة اشعارهم واخبارهم — اذا قرأناها قراءة صحيحة . لم يكونوا في جاهليتهم يغضبون للعرض المهتوك الى حد الانتقام بالقتل كما نظن الان خطأ ، بل كانوا يقبلون ما يسمى « العقر » بضم العين وسكون القاف. والعقر هو ما يغرم الرجل في عذرة المرأة اذا اقتضها . وقد كان من أشد ما اخذه الشعوبيون على العرب انهم في جاهليتهم — اي قبل اسلامهم الذي تساوى فيه العربي وغير العربي — كان نساؤهم كثيرا ما يوطأن في الغزوات وغيرها دون ان يثير هذا منهم غضبا كبيرا . أما الذي تسبب في شيوع تلك الفكرة عن عفة الحب البدوي فنشوء مدرسة الحب العذري في الشعر العربي وهي مدرسة لم تبدأ في الظهور الا في منتصف القرن الهجري الاول ، ويرجع نشوؤها الى تعاليم الاسلام الاخلاقية وقيمه الروحية الجديدة والى أسباب اخرى اجتماعية ومادية متصلة بمجيء الاسلام .

فاذا نحن اردنا ان نتبين نصيب البداوة من العفة الجنسية وان نكون عنه صورة صحيحة فلن يتحقق لنا هذا اذا نظرنا في بادية مسلمة أو في بادية مسيحية في لبنان مثلا . بل يجب علينا ان نتأمل في بادية خالصة البداوة لم يؤثر فيها الاسلام او المسيحية ، فننظر مثلا في البادية الوثنية في جنوب السودان لا في البادية المسلمة في شماله ولا في النواحي التي تطرق اليها تأثير المبشرين المسيحيين في جنوبه، وننظر في البادية الوثنية في اقطار افريقيا واسيا والجزر المحيطية وغيرها من اقطار الارض . وهنا اذكر من سني اقامتي في السودان خطابا طريفا نشرته احدى صحف الخرطوم من احد قرائها الجنوبيين المسلمين في واو (عاصمة المديرية الاستوائية في جنوب السودان) ، يقول فيه ان محاكم الجنوب تعاقب الزاني عادة بغرامة معينة تدفع الى زوج الزانية ، وهو يطلب الى الحكومة ايقاف هذا النوع الفاضح من المحاكمات وابداله بقوانين صالحة تدعو الى الكرامة وتردع المجرمين » .

حتى بعد مجيء الاسلام ، هل صحيح ان البداوة كلها فضيلة وتعفف جنسي ؟ هنا نواجه هذه المسألة الشديدة الحساسية ، لكن لا محيد لنا عن مواجهتها . ذلك ان عاملين كبيرين يحولان بين معظمنا وبين الاقرار بالاحوال الحقيقية في مجتمعنا ، احدهما الجهل ، وثانيهما النفاق . فكثيرون لا يعرفون المدى الحقيقي لانتشار اللقاء المحرم بين الجنسين في باديتنا وريفنا . والذين يعرفون لا يجرؤون على التصريح بما يعرفون . وانا اذكر عظم دهشتي وانكاري منذ ثلاثين سنة حين اخبرني احد الاصدقاء من خارج قريتي المصرية بحقيقة الحال في تلك القرية ، وكنت كغيري من ابناء القرى اعتقد انها غاية في البراءة والطهر . كما اذكر الضجة الكبيرة التي اثارها في الخرطوم طالب نشر في مجلة الجامعة بحثا عن قرى النوبة ، ادعى فيه ان هجرة الرجال منها لطلب الرزق توقع كثيرا من نساء القرى في حبائل الغواية . وانقل هنا سطورا تناولت فيها الموضوع الراهن في « الكلية ، مجلة كلية الخرطوم الجامعية » ، عدد مارس سنة ١٩٥٣ :

« ما الاحوال التي توجد في الكثير من نواحي السودان البدوية ؟ ما علاقات الرجال بالنساء في غرب السودان مثلا ؟ هذا سؤال لا استطيع انا الاجابة عليه لاني لم أزر تلك الاقاليم ، فانا اتركه الى بحثكم ومناقشتكم ، وكل ما اقوله هو انني ان صدقت طلبتي الذين زاروا هذه النواحي في رحلاتهم الجغرافية السنة بعد السنة ، قطعت بشيوع العلاقات المحرمة بين الفتيان والفتيات ، الى حد نشأ عنه انتشار الزهري وغيره من الامراض السرية الى درجة مخيفة قدرها بعض الطلبة بأنها تبلغ تسعين في المائة . فان صح هذا الذي بلغني تجلى لنا صراع الاسلام والبداوة وكيف ان هذه ما زالت تحتفظ بالكثير من خصائصها البدوية برغم اسلامها . لا جرم ان وصف القرآن الكريم الاعراب بأنهم اشد كفرا ونفاقا ، وبأنهم اجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله . »

يرى القارىء مدى التحفظ والاحتياط الذي اتخذته في تلك السطور ، لا للسبب الذي ذكرته فيها وحده ، وهو عدم علمي الشخصي بأحوال تلك النواحي ، بل لكوني ضيفا نزيلا على السودان لا يقبل منه ما قد يقبل من ابناء البلد . وكل ما اضيفه هنا هو ان ذلك الادعاء عن انتشار الامراض السرية الذي نقلته عن طلبتي اثبت صحته فيها بعد لجنة طبية ارسلتها مؤسسة الصحة العالمية التابعة للامم المتحدة لدراسة المسألة واقتراح وسائل العلاج في كردفان ودارفور . فلاترك الى سائر القراء العرب ان يتعرفوا حقيقة الاحوال في متعدد بواديهم وقراهم ، ولاترك الان البداوة لكي أتأمل الحضارة ونصيبها من الفضيلة الجنسية او عدمها .

هل صحيح ان حياة المدينة يشع فيها التحلل الجنسي الى ذلك الحد الذي يعتقده الكثيرون ؟ حقا ان بالمدينة مفاسد ، ومفاسد كثيرة، لكن عملنا الدقيق هو ان نتبين النسبة ، نسبة انتشار هذا التحلل بين سكان المدن . نسلم بأن بالمدينة بؤرا للشهوات ودورا للآثام كثيرة ، لكننا نخطيء جدا حين نعتقد ان كل من بالمدينة ملوث بلوثتها . بل الحقيقة التي سيدهش منها الكثيرون هي ان « معظم » أهل المدينة — وهم الناس العاديون أسر الموظفين والتجار والعمال — يعيشون معيشة هي « في أغلبها » فاضلة . وان ابنة الافندي الذي يسكن المدينة تضرها الفضيحة وتضر اباها واسرتها بأكثر مما تضار ابنة البدوي في البادية الصحيحة البداوة .

يلاحظ القارىء انني لا احاول ان انكر ما في المدن من اثم كبير ، فالمدن فيها المواخير والكباريهات والمراقص الخليعة ومختلف بيوت الريبة والفساد ، لكننا نخطيء خطأ كبيرا اذا ظننا ان كل بيوت المدينة او معظمها من هذا النوع ، بل معظمها بيوت فاضلة شريفة لآباء وأزواج شديدي التمسك بشرف بناتهم وزوجاتهم ، وهم انفسهم في « معظم » حياتهم مخلصون للعلاقات الزوجية .

ثم اننا يجب علينا حين نتحدث عن كثرة الاثم في المدن ان ندرك حقيقة حسابية بسيطة ، ان سكان المدن اكثر عددا ، اذن لا يروعنا ان دور الفحشاء في المدن او عدد البغايا المحترفات كثير ، بل ننظر الى النسبة ، متذكرين ما قلناه من ان الزنا في البادية ليس مقتصرا على المحترفات بل يشيع في عامة نساء البادية .

هناك مسائل اخرى هامة يجب ان نناقشها حين نفكر في نصيب المدينة من الرذيلة . يجب ان نسأل مثلا : هل هذه المفاسد من خصائص الحضارة كحضارة ؟ أهي آثام لا تنبت في الانسانية الا في مرحلة الحضارة ؟ وهذا سؤال جوهري في الموضوع ، اذ لا يحق لنا ان نسمي نوعا ما من الشر شرا حضريا الا اذا اثبتنا انه لم تجلبه على الانسانية الا الحضارة ، كما يحق لنا مثلا ان نقول ان كثرة عدد القتلى في حوادث المرور هي من شرور الحياة المدنية .

سؤال آخر كبير الاهمية : هل هذه المفاسد من طبيعة الحضارة الحقيقية بحيث لا تقوم للحضارة قائمة ولا يستمر لها كيان الا اذا وجدت هذه الرذائل . أو لعلها في حقيقتها من ملامات انحلال الحضارة. فمن الظلم ان نقول انها من خصائصها الجوهرية والاقرب الى الصحة

ان نقول انها منافية للحضارة ، بدليل انها تؤدي الى انحلالها وتهدمها .

وهذا هو الرد الذي نرد به على معظم الامثلة التي قد تضرب لنا على مفاسد الحضارة ، في مختلف عصور التاريخ . فنقول : ان هذه الامثلة اذا تأملناها جيدا وجدناها قد ترعرعت لا في عنفوان هذه الحضارة بل في الفترة التي جاوزت فيها سمتها وبدأت في الانحدار ، فكانت من اعظم العوامل التي ادت الى انهيار هذه الحضارات المتعاقبة ، من حضارات ما بين النهرين ، الى الحضارة الفرعونية ، الى الحضارة الاغريقية ، الى الحضارة الرومانية ، الى الحضارة العربية الاسلامية نفسها . فهي كما ترى عدوة الحضارة وهي تؤدي الى اختناقها وموتها .

وهذا ايضا ما نرد به على ما سيذكر لنا من آثام الحضارة الغربية المعاصرة . فهذه الآثام انما شاعت في اوساط معينة قد بلغت فيها هذه الحضارة مرحلة انحلالها وبدء انهيارها ، الامر الذي لا ينكره المفكرون المنصفون من رجال الغرب انفسهم ، بصرف النظر عن تدينهم او اقفارهم من كل عقيدة دينية . لكن حتى في هذا المجال نحن ـ معشر العرب والشرقيين عامة ـ نخطىء كثيرا حين نعتقد ان معظم نساء الغرب ساقطات منحلات يخن ازواجهن ويمكن منهن كل راغب في اجسادهن . هذه هي الفكرة التي يذهب بها الى الغرب اكثر طلبتنا الذين يسافرون الى بلدانه في بعثاتهم الدراسية مثلا ، ولعل منهم من يفرك يديه بابتهاج وامل منتظرا ان تسرع الى احضانه كل انثى تقابله ! وما اكبر ما تكون دهشته وما اشد سخطه حين يجد ان الامر على عكس ما كان يتخيل ، وان الوصول الى المحترفات انفسهن كان اسهل له في بلده الشرقي .

لست اريد بهذا ان انكر ان الفتى والفتاة في الغرب كثيرا ما يتراضيان على اقامة الوصلة بينهما بدون عقد زواج ، ولا انا اريد بكلامي الذي سيلي ان ادعي ان هذه الظاهرة شيء حسن في ذاته وان قيمنا التي تستوجب وجود العقد الرسمي ليست خيرا منها . لكننا نجانب الانصاف اذا لم ندرك اختلاف القيم هنا ، واذا حملنا هذا على ان نظن ان الفتى والفتاة في الغرب يدخلان في علاقتهما غير الرسمية بسهولة واستهتار . فالحقيقة هي انهما لا ينتهيان الى هذا التراضي ـ في اغلب الاحوال ـ الا بعد تفكير وتروّ وموازنة هي ابعد شيء عما نظن من الاستهتار والتحلل . وهذه ايضا حقيقة يعرفها كل شاب شرقي سافر الى الغرب وعاش فيه زمنا فادرك صعوبة اقامة تلك العلاقة وطول المدة التي يجب ان يقضيها في موادة الفتاة الغربية قبل ان ترضى به . وسيجد في اكثر الاحوال انه كان اسهل عليه جدا ان يجد او تجد له اسرته في بلده الشرقي فتاة ترضى وترضى معها اسرتها ان يعقد بها زواجا رسميا ، فما دام يستطيع ان يدفع المهر المطلوب فهو يستطيع ان يتم هذا الزواج في ايام قليلة ان شاء . وما دمنا نجيز لانفسنا ان نرمي تلك العلاقة الغربية غير الرسمية بالخطأ والخطيئة ـ وبعض مفكري الغرب يوافقوننا على هذا الاتهام ـ فان واجب الانصاف يقتضينا مرة اخرى ان ننصت الى ما يقوله الغربيون في عقود زواجنا الرسمية التي لا يزال الكثير منها للاسف الشديد يعقد دون اعتبار لرغبة الفتاة . هم يعتقدون ان هذا لا يختلف شيئا عن الزنا ، ويعتقدون اعتقادا حارا ان تلك العلاقة الغربية التي وصفنا بين الفتى والفتاة في بلدانهم اكبر صونا لعزة الفتاة وكرامتها .

هذه اذن مسألة دقيقة شائكة توضح اختلاف القيم ، ومهما يكن من خطأ نظرتهم وصحة نظرتنا في هذه المسألة ، او العكس ، فان الحقائق والمناقشات التي سبقت جديرة بأن تقنعنا بأن الحضارة ـ الحضارة التي لم تصر بعد الى مرحلة الانحلال وبداية الانهيار ـ نصيبها من التعفف الجنسي اكبر من نصيب اهل البادية . لكني ادرك ان بعض الناس ربما لا يقتنعون برغم كل تلك الاستشهادات ، وسبب ذلك ان الفكرة لا تزال غريبة عليهم مخالفة خلافا اساسيا لما ثبت في اذهانهم من زمن طويل ، فهم يحتاجون الى مزيد من التأمل والمراجعة والقراءة والاطلاع قبل ان يجتثوا عقيدتهم الراسخة عن عفة البداوة وإثم الحضارة . الا اني اعتقد انني محق اذا قررت ان ما سبق من الامثلة والمناقشات ، ان لم يكن بعد كافيا لاثبات ان اهل المدن هم فعلا اكثر فضيلة من اهل البادية ، فهو يشير على اقل تقدير الى انهم ربما لا يقلون عنهم عفة جنسية . وهذا حسبي الآن في التدليل على صحة قضيتي التي احاول اقامتها في هذه المقالة .

فلننتقل الان الى الفضائل الاخرى ، بعد هذا الوقوف الطويل على الفضيلة الجنسية ، والذي اضطرني الى هذا الوقوف هو ما اشرت اليه من ان معظم الناس حين يتحدثون عن الفضيلة والرذيلة انما يعنون ذلك النوع الواحد . لكننا يجب علينا ان ندرك ان الفضيلة الجنسية ، على عظمها وكبر اهميتها ـ وليس كاتب هذه السطور ممن يقللون من شأنها او يعتقدون ان الحاجة اليها قد زالت ، ولقد ادليت برأيي ان انهيار الحضارات المتعاقبة كان يرجع في نصيب عظيم الى شيوع التحلل الجنسي فيها ـ هذه الفضيلة ليست هي كل الفضائل ، فهناك فضائل اخرى لها هي ايضا كبرها واهميتها في تحديد نصيب المجتمع من الترقي الانساني والارتفاع على درك الحيوان الاعجم .

ما رأي القارىء في الفضائل العظيمة الاخرى ، وفي نصيب البادية والحاضرة منها ؟ مثل الصدق ، والوفاء بالوعد ، والغيرية اي عدم الانانية ، والاعتراف بحقوق الغير ، وعدم الاعتداء ، والرحمة والعفو ، ومراعاة شعور الآخرين ، واللطف في المعاملة ورقة الحاشية ، والامانة ، والاخلاص في الصداقة ، والاعتراف بالجميل ، واحترام القانون ، والشجاعة الادبية ، والجرأة على نقد المجتمع وممارسته آراءه الخاطئة ، وغيرها من الفضائل التي لا شك في قيمتها وفائدتها .

كل هذه وامثالها فضائل لا شك ان حظ الرجل المتحضر منها بوجه عام اكبر من حظ الرجل المتبدي . فالحضارة بما انها اكثر علما وثقافة وتهذيبا هي اكبر تربية للنفس الانسانية وتشذيبا لنقائص الطبيعة البشرية وكبحا للخصال الحيوانية المتبقية فينا من اصلنا الوحشي .

والمتحضرون هم ايضا بوجه عام اكثر عفة لفظية . وما يقوله ابن خلدون من ان اهل الحضر اكبر اقذاعا بالاقوال المفحشة واقل تحشما في الكلام هو ضد الحقيقة الواقعة على خط مستقيم . وانما اوقع ذلك المفكر الكبير في ذلك الخطأ الكبير اقتصاره على النظر في احوال المدن في عصره ، وهو عصر كانت الحضارة الاسلامية قد بلغت هوة انحلالها الخلقي وتفككها الاجتماعي قبله ببضعة قرون ، اذ كان هذا الجانب فيها قد بدأ يستشري في اوساط المجتمع ويخرج عن بعض الاوساط الضيقة المحدودة منذ القرن الهجري الرابع ، كما يتجلى لنا في صفحات كتاب اليتيمة للثعالبي وكتب اخرى متعددة . اما الحضارة التي لم تنحل بعد فالامر فيها مختلف جدا ، اذ كلما زاد نصيب الناس من الروح المتحضرة زاد تهذب الفاظهم وتجنبهم للعبارات النابية والشتائم القذرة ، وتحرجهم من ذكر العورات والاشارة الى اجزاء معينة في الجسم او عمليات معينة من ضرورات النشاط الحيوي . اما اهل البادية واهل القرى ايضا فاقل تحرجا في ذكر الاسماء الصريحة لهذه الاعضاء والعمليات ، بل هم يذكرونها دون ما حياء وبلهجة عادية لا يجدون فيها ما يستنكر . اجد هذا كلما زرت قريتي المصرية في عطلة الصيف واقمت فيها اياما او اسابيع ، ابدأ بالتأذي الشديد من سماع تلك الالفاظ الصريحة التي لا يتحرج منها رجال من اكبر اهل القرية فضلا ، ثم انتهي بأن تألفها اذني وتتعود عليها فلا تعود تصايقني كلما سمعتها نفس المضايقة .

الحقيقة هي ان التحضر هو الذي يعلم الناس الحشمة ، حين يدرك الذهن البشري انه اذا اراد ان يعلو على درك الحيوان فان هناك اجزاء في الجسم وعمليات من النشاط البيولوجي يجمل سترها وعدم ذكرها بالتصريح . اما في البداوة فلا حرج من ذكرها ، بل في احط درجات البداوة واقربها الى الدرك الحيواني لا حرج من الكشف عنها ولا ضرورة لسترها .

الحشمة اذن هي في ذاتها مفهوم حضري يزيد نصيب الانسان من استجلائه وتحقيقه كلما زادت درجته من التحضر . فلنات الآن الى

ناحية اخرى هامة جدا يجب ألا ننساها حين نتحدث عن الفضيلة والرذيلة بين البداوة والحضارة . الا وهي الناحية الاقتصادية . لا نحتاج لان نكون ماركسيين نرجع كل شيء الى المادة لكي ندرك ان قدرا عظيما من الآثام مرجعه الفقر بكل بساطة . نعم ، نصيب ضخم من الرذائل الخلقية يعود الى العوز الاقتصادي ولا يصححه مجرد الوعظ الاخلاقي بقدر ما يصححه اليسر المادي . فاذا عاد القارىء الآن الى امثلة الفضائل التي عددناها وانفق بضع دقائق في التفكير فيها تبين له مدى اعتمادها في شيوعها في مجتمع ما على نصيب ذلك المجتمع من الرفاهية الاقتصادية . وظاهر ان الحضارة برخائها الاقتصادي الذي يزيد زيادة ضخمة على الكفاف والضرورة الشائعين في البداوة ـ والبداوة بتعريف ابن خلدون نفسه هي مرحلة الاقتصار على الضروري، ولا يزال هذا التعريف هو التعريف الاساسي الذي نحدد على ضوئه درجة مجتمع ما من التقدم او البدائية ـ الحضارة بهذا الرخاء تهدم اساس الكثير من الرذائل او تضيق من مجال انتشارها بما تقلل من حاجة النفس الانسانية الى ارتكابها . الفرد في الامة العربية المتقدمة لا يتهرب من الكمساري (محصل التذاكر) في الترام او الاوتوبيس كما يفعل الكثيرون منا لسبب بسيط : هو انه اكثر رخاء ماليا واقل حاجة الى القرش المسروق .

***

اذا كانت قضيتنا صحيحة وكانت الحضارة اكبر تنمية ونشرا للفضائل المختلفة من البداوة ، فما سبب انتشار تلك الفكرة الخاطئة ؟ ان بحثنا لا يتم الا اذا حاولنا ان نستكشف الاسباب التي تروج هذا الخطأ الشائع وتجعل الناس يتشبثون به حتى لنجد بعض كبار المفكرين يقعون فيه . وفي محاولتنا هذه ستزداد لنا القضية جلاء ، وربما يزداد القراء اقتناعا بصحتها .

توجد في نظري ثلاثة اسباب عظيمة : اولها الحنين الى الماضي . الناس دائما ينزعون الى تذكر ماضيهم لا كما كان في حقيقته بل مكسوا بصبغة عاطفية زاهية تتذكر المحاسن والمتع وتجسمها وتنسى المساوىء والآلام او تخفف منها . يحدث هذا للفرد حين يتذكر طفولته واول شبابه ، ويحدث نظيره للامم حين تتذكر عصورها السالفة . اسمع اباك يتحسر على ماضيه ويقارنه بحالتك وحالة اقرانك من الفساد والشر والعقوق والعصيان وزوال الحياء والحشمة . لكن يا حبذا لو كنت سمعت اباه ، اي جدك ، يعقد نفس المقارنة بين جيله وجيل ابيك ويستعمل نفس الالفاظ . او انتظر انت وترقب ماذا ستقول حين يشب اولادك وتدركك مرحلة الهرم والشيخوخة !

اسمع طلبتي في كل يوم تقريبا يذمون حالتهم الراهنة من التلمذة ويشكون من عناء المذاكرة وفظاعة الامتحانات واحصاء الحضور والغياب وتعسف المدرسين وظلم الدرجات ورداءة الاكل في مطاعم الجامعة ... ثم ينتهون من دراستهم ويحصلون على درجتهم ويوظفون بالحكومة او الشركات . وتمضي السنة او السنتان ، ويزورونني . فأسالهم عن حالهم ، فاذا حديثهم كله سخط على حياتهم الجديدة في معترك العمل ، وتحسر على عهد التلمذة السعيد اللذيذ ، وما كان فيه من المتع والزمالات وراحة البال والفكاهات . واذا هم قد نسوا تماما آلام التلمذة ومتاعبها فلا يتذكرون عهدها الا بصورة وردية بهيجة ، مشرقة حافلة بالسعادة .

هذه هي التجارب المألوفة التي تحدث ويحدث امثالها لكل فرد منا . فاذا تجاوزناها الى علم النفس الحديث امدنا هذا العلم بتحليلها ومحاولة تعليلها ، وشرح لنا الوسائل والذرائع التي تلجأ اليها النفس البشرية في كبت التجارب السيئة حتى ينساها الذهن الواعي . كذلك الامة او الجماعة البشرية حين تتذكر ماضيها ، تنسى همومه وارزاءه وتلونه بلون خير فاضل سعيد ، فيخيل اليها انها كانت اسعد حالا وافضل خلقا ، كما تعتقد انها كانت اوفر بركة وارغد حياة واتم صحة واطول اعمارا واقوى اجساما واقل امراضا ، والحقيقة في هذا كله على الضد تماما كما سنشرح بعد قليل .

هذه النزعة العاطفية الرومانسية المائعة من اعظم اسباب انتشار تلك الفكرة ، فيظن الناس ان البداوة ، بما انها اقدم في تاريخ الامة ، هي لذلك افضل خلقا . هذا هو السبب الاول الذي يتلخص في الظاهرة التي وضع لها بعض العلماء تسمية « خرافة العصر الذهبي » . وهي الخرافة التي تعتقد ان الانسانية كانت في الماضي في خير احوالها وان تاريخها المتعاقب ليس الا سجل الانحدار والسقوط . اما السبب الثاني ففكرة فلسفية خاطئة قال بها بعض الفلاسفة ، وهي الاعتقاد بان الانسان خير بطبعه ، وان المجتمع هو الذي افسده ، وان خلاص الانسان يكون بتطليق المجتمع والارتداد الى حالته الطبيعية في احضان الطبيعة البريئة .

وهذه فكرة قديمة ، لعل اصلها هو تلك النزعة الرومانسية المائعة نحو تقديس الماضي ، لكن حاول بعض الفلاسفة ان يثبتوها بادلة جدلية نظرية صرف . ومن اكبر من روج هذه الفكرة الكاتب الفرنسي جان جاك روسو ، وان لم يكن اول ولا آخر من اعتنقوها وروجوا لها . وقد رأينا ان مفكرنا الكبير ابن خلدون قد وقع في مثيل الخطأ حين اعتقد في فصله المشار اليه ان الانسان في حالته الطبيعية او حالة « الفطرة » يكون اقرب الى الخير وابعد عن الشر ، وان يكن ابن خلدون قد خالف رأيه هذا في مواضع اخرى من مقدمته . وهي فكرة يثبت خطأها دراسة العلم ومشاهدة واقع الاحوال . فليس الانسان خيرا بطبعه للاسف الشديد ، بل هو في طبيعته الغفل لا خير ولا شرير ، اي ما يسمى آمورال amoral . والذي يكسبه الوعي الاخلاقي ويفهمه المقاييس الخلقية انما هو التربية والتعليم والدين والقدوة الحسنة وغيرها من عوامل التهذيب الخلقي في المجتمع الانساني .

اما في طبيعته الغفل فالانسان لا يميز بين خير وشر ، وفضيلة ورذيلة بل يندفع الى ما تمليه عليه رغائبه الحيوية وغرائزه الحيوانية. ولعله في هذه الحالة اقرب الى فعل الشر ـ اي ما تسميه المقاييس الاخلاقية شرا ـ منه الى فعل الخير . الشر اسهل عليه واسرع مبادرة اليه من الخير ، كما قرر ابن خلدون نفسه في فصول اخرى تناقض ما يدعيه في الفصل الذي نحن بصدده . يتجلى لك هذا اذا تأملت تأملا هادئا في الطفل باذلا جهدك في التجرد من النظرة الرومانسية الشائعة نحو الطفولة والاطفال . اذ ذاك تستكشف ان الطفل ليس ذلك الملاك البريء الذي تصوره تلك النظرة ، بل هو حيوان اناني قاس شديد القسوة ، همه تحقيق رغائبه ، لا يحفل بشعور الآخرين ولا يدرك ان لهم حقوقا ، ويظن ان الوجود لم يخلق الا له ، ويغضب اقوى الغضب اذا منع من فعل ما يشاء واخذ ما يطمع في الاستيلاء عليه . على ان رذائله لا تقتصر على هذا الجانب السلبي الذي ينشأ من مجرد الجهل بمصالح الآخرين ورغباتهم ، بل ان فيه جانبا ايجابيا من حب الشر ، فهو يجد في القسوة لذة وفي الاعتداء لذة ، يتلذذ بتعذيب العصافير وصغار الحيوان ، وضرب ضعاف الاطفال ممن يقوى عليهم . ثم يحتاج الى عناء طويل ومجاهدة مرة من ابويه ثم مدرسته ثم مجتمعه لكي يتعلم كبح غرائزه حين تتعارض مع مصلحة الآخرين ، ولكي يعرف قيمة الرحمة والعطف على الضعيف وانها ارفع له من تلبية اغراء القسوة الحيواني ، ولكي يدرك على اي حال وجوب الامتثال للاوامر والنواهي الخلقية والاجتماعية الكثيرة التي يقيده بها المجتمع . وكلما ازداد مجتمعه درجة في التطور زادت التكاليف التي يأخذه بها ويستلزمها لكي يقبله ويحتفظ به عضوا فيه .

بل انظر في نصيب هذا الطفل الانساني من النظافة الجسمية لتدرك انه ليس نظيفا محبا للنظافة بطبعه ، انما هو قذر محب للقذارة بطبعه (وهو في هذا دون بعض الحيوان نفسه ، مثل جنس القط بفصائله المختلفة) . هو يكره جدا ان يلزم بغسل وجهه ويديه ولا يفهم داعيا لهذا الالزام السخيف الذي يأخذه به الكبار ، وهو راض اتم الرضى بقذارته ، بل لعله اكثر سعادة كلما زاد نصيبه من القذارة . ولا نبالغ اذا قلنا ان قذارته الدنية هذه تقارنها قذارة خلقية يحتاج الى تربية وتأديب طويلين قبل ان يتعلم كرهها والنفور منها ويفضل

النظافة الخلقية عليها .

فالانسان البدوي في وعيه الخلقي البدائي اقرب الى هذا الطفل الذي وصفناه ، كما انه اقرب اليه في قلة نظافته البدنية . ذلك ان المجتمع البدوي قائم في اغلبه على الاغتصاب وتعدي القوي على الضعيف وتسابق الاسر والقبائل الى تحصيل رغائبهم بدون مبالاة بأثر هذا على باقي القبائل او الاسر . بل الطبيعة نفسها ، الطبيعة التي يقدسها اولئك الرومانسيون ويعتقدون بفضلها وطهارتها ويرون خلاص الانسان بالعودة اليها ، هذه الطبيعة كما تدلنا الدراسات العلمية قائمة كلها على البطش والتعدي والقسوة والتهام القوي للضعيف ، والانسان هو الذي يجلب اليها الفكرة الاخلاقية ويحاول ان يحقق في جزء منها وهو الجزء الذي يعيش هو فيه قدرا من التعفف ورعاية شعور الآخرين واحترام مصالحهم وعدم الاندفاع وراء الغرائز والتقيد بقيود الاخلاق .

***

هذان سببان لانتشار فكرة الفضيلة البدوية والرذيلة الحضرية . وكلاهما كما رأينا ناشىء عن فكرة مخطئة ، لكنها على اي حال فكرة مخلصة ، اعني ان الذين يعتنقونها يقعون في خطأهم عن عدم علم لا عن اغراض متعمد . ولكن حين نأتي الى السبب الثالث فاننا للاسف الشديد نجد من ورائه غرضا انانيا مقصودا ، هو ترويج بعض المغرضين، وهم دعاة المذهب الاستعماري .

اود اولا ان اؤكد لقرائي انني لست ممن يتهمون الاستعمار بكل مصائبنا وآلامنا ، ويرون بعبعه المخيف في كل ما يلم بنا ، وارجو الا اكون ممن يجدونها وسيلة سهلة في كسب قضاياهم او تمويهها ان يقحموا فيها الحديث عن الاستعمار وجرائم الاستعمار . لكن الموضوع الذي اتناوله الآن من الموضوعات التي يحق لنا فيها ان ننسب الى هذا الاستعمار جزءا كبيرا من المسؤولية ، وهو بعد موضوع راقبته عن كثب مراقبة شخصية تسع سنوات طويلات قضيتها في قطر عربي كان خاضعا للحكم الاستعماري مفتوحا لدعاياته .

هؤلاء الدعاة يهمهم استبقاء النظام القبلي الى اطول امد ممكن ، لانه يمكنهم من الاستمرار في حكم البلدان المتأخرة او غير مستكملة النمو والانتفاع بخيراتها . لذلك ينصبون من انفسهم دائما مدافعين عن النظام القبلي ويتحدثون بحسناته وفوائده ، ويزعمون انه اصلح لتلك الاجناس المحكومة من التطور الحضاري . وما اكثر حديثهم عن جلال النظام القبلي وفضائل القبلية وتقاليدها الكريمة ، الى آخر ما يقولون خداعا لاهله واغراء لهم بالابقاء عليه .

ربما يقول القارىء : لكن الا يمكن ان يكون هؤلاء ايضا يقعون في خطأهم عن حسن نية ؟ وهذا ولا شك ينطبق على بعضهم ، لكنه للاسف لا ينطبق على جميعهم ، ولا ينطبق بنوع خاص على دهاقينهم الذين يسوسون تلك البلدان ويصرفون امورها اما بمباشرة سافرة او من وراء دماهم التي يحركونها من مشايخ القبائل . هؤلاء يعرفون حقيقة الامر فيما هم بسبيله ، لذلك تجد سخطهم كبيرا وعقابهم شديدا على الشباب المتحرر من ابناء القبيلة ، فهم يذمونهم امر الذم ويتهمونهم بانهم مخربون هدامون يهدمون كيان المجتمع العريق ولا يسببون لاهلهم الا الفوضى والشقاء والتعاسة ولا يقودونهم الا الى الفساد والانحلال . وحجتهم ان الناس سعداء في حياتهم القبلية وان محاولة تحضيرهم تقضي على سعادتهم هذه ، ثم يضيفون بتصنع ماهر للطيبة : اليست السعادة اهم شيء في الحياة ؟ ثم يرتدون مسوح الواعظ الاخلاقي فيتجهون الى اهلنا محذرين اياهم من المدنية الفاسدة الشريرة ويصيحون خير لكم ان تحتفظوا ببداوتكم الجميلة وتقاليدكم القبلية الكريمة من ان تجروا وراء هذا الغثاء التافه والسراب الخلاب !

ومن المحزن المؤسف ان بعض رجالنا في اقطارنا العربية والشرقية ينخدعون بتلك الدعاية المسمومة ـ دعك الآن ممن في مصلحتهم ان يروجوها من الاقطاعيين الوطنيين ـ فيرددون امثال هذه الترهات غير دارين بانهم يجعلون من انفسهم ابواقا للرجعية وعراقيل امام تقدم الامة وتطورها . اولئك الدعاة الاستعماريون الذين يحذروننا من حضارة بلادهم ويحببون الينا تأخر بلادنا يذكروننا بالغني الذي ذهب في اقصوصة معروفة الى جاره الفقير ناصحا له بأن يظل فقيرا ومحذرا اياه من متاعب الغنى وهمومه ومؤكدا له : اسعد لك الف مرة ان تظل فقيرا خالي البال ، ثم يمضي في تبيان شرف الفقر وذم آثام الغنى ومفاسده . فهل نحتاج الى ان نقول آن خير رد يرد به ذلك الفقير لو كان حصيفا هي ان يقول للغني : اعطني غناك مع كل شقائه ونقائصه وخذ فقري بكل سعادته ومحاسنه !

اما زعمهم ان الحياة البدوية اكثر فضيلة واطهر اخلاقا فقد ناقشناه بالتفصيل الذي يتيحه حجم هذه المقالة . فلننظر الان في ادعائهم بأن غير المتحضر اقوى بدنا واوفر صحة جسمانية . افهذا زعم صحيح ؟ هل المدينة حقا اكثر امراضا من البادية ؟ هذا وهم له اسباب متعددة ، منها ان الطب لتقدمه في الحاضرة قد استكشف وحلل عددا اكبر من الامراض ووضع لها اسماء ، فتوهم كثيرون انها جاءت مع الحضارة وان ماضي الانسانية كان خلوا منها . والحقيقة ان الناس في القديم كانوا يقولون مثلا: مات بحمى، والآن نعرف عشرات الانواع من الحمى التي استكشفها الطب الحديث واهتدى الى دواء الكثير منها وما زال يحاول علاج باقيها ، وهو في الوقت نفسه لا يزال يستكشف كنه امراض ظلت الى الآن خفية .

لا اريد ان انكر ان الحضارة بنظامها المدني والصناعي الخاص ، بازدحامها ودخانها وضجيجها وسرعتها ، قد تسمح بمجال اوسع لبعض الامراض ، وهو ما يدركه اطباؤها وعلماؤها ويدرسون وسائل علاجه والوقاية منه . لكن الحقيقة التي تثبتها الدراسات الاحصائية هي ان الحضارة بوجه عام اكثر صحة وان المتحضرين بلا شك اقوى ابدانا واطول اعمارا . ليست هناك فكرة اكذب ولا اخبث ولا اضر من فكرة المتوحش السليم الجسم the healthy savage . اين هو هذا ؟ ادرس ما شئت من الجماعات البدوية او اذهب الى بعض الاقاليم الافريقية والاسيوية وانظر الامراض المستوطنة الفتاكة تحصد الارواح وتنهك الاجسام وتمتص القوى . والقارىء المهتم بمتابعة الاحصائيات التي تنشر من حين الى حين عن متوسط الاعمار في مختلف البلدان يعرف حقيقتين : ان متوسط العمر المرتقب في البلدان المتحضرة اعلى بكثير منه في البلدان المتخلفة او غير المستكملة التقدم. (كان في الجيل الماضي في انجلترا حوالي الثامنة والخمسين وفي مصر اقل من الثالثة والثلاثين وفي الهند اقل من الثالثة والعشرين ، هذا بادخال وفيات الاطفال بطبيعة الحال) . وان متوسط العمر المرتقب في البلدان المتقدمة في ارتفاع مطرد قدرته بعض الاحصائيات الحديثة بزيادة عشر سنوات في متوسط اعمار الجيل الراهن .

او اقرأ صحف التاريخ القديم والوسيط وتدبر كثرة الاوبئة الفتاكة التي كانت تنتشر انتشارا ذريعا وتحصد الملايين من البشر في تعاقب دوري . ولست اظن قارئي ممن يؤمنون بالخرافة القديمة ان الناس في الماضي كانوا عمالقة يصلون بايديهم الى قرص الشمس فيشوون فيه ما يصطادون من سمك البحر . لكن هل يدرك القارىء ان القدماء كانوا فعلا اصغر اجساما من الرجل الحديث ؟ هذا ما استنتجه العلماء من دراسة الحفريات والآثار والرسوم والتماثيل القديمة ، بل في القرون الوسطى على قربها النسبي في الزمان كان الفارس اصغر بنية من الانجليزي العادي المعاصر ، بدليل ان الدروع المحفوظة في المتاحف وقصور النبلاء لا تتسع لهذا الاخير . ومن دراسة العظام التي خلفها الانسان البالوليثي استدل العلماء على انه ندر ان زاد عمره على الستين . والكشف الطبي الذي اجرى على مومياء قدماء المصريين اثبت ان اصحابها مات بعضهم بأمراض القلب التي يظنها بعضنا من خصائص الحضارة الحديثة . والاغريق القدماء عرفوا امراض القلب وان لم يعرفوا اسبابها ، اذ لم تكشف اسرارها الا بعد ان استكشف وليم هارفي حقيقة الدورة الدموية في سنة ١٦٢٨ . وكشوف الاشعة

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

الفضيلة بين البدو والحضر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

التي قام بها بعض الاطباء الروسيين على حفريات القرم وسيبريا واوكرانيا وازبكستان قد اثبتت قدم الامراض التي تصيب الانسان الحديث ورجوعها الى العصر الحجري والبرونزي مع اختلاف بسيط سببته اسباب التحضر ، ومنها استنبط اولئك الاطباء ان مستوى الصحة العامة قديما لم يكن احسن بكثير من مستوى الصحة في الوقت الحاضر كما كان الاعتقاد السائد ...

ولكن هل نحتاج الى تعداد الامثلة اكثر من هذا ؟ هذه هي الحقيقة النزيهة عن المتوحش الذي يزعمون سلامته والمتحضر الذي يزعمون مرضه ، ناخذها من الدراسات والاحصاءات الجادة لا من افلام طرزان وغيرها من افلام هوليوود التي كانت من اكبر العوامل في ترويج تلك الفكرة الخاطئة . وهذه الحقيقة هي بالطبع ما كنا ننتظره من التفكير الهادىء في المسالة . فتقدم الدراسات العلمية والاستكشافات الطبية والادوية الحديثة المضادة للحيويات ، وانتشار المرافق الصحية في البيوت والمدن ، وكثرة العناية بالنظافة الاجتماعية وامور الصحة العامة ، وسهولة العلاج وتكاثر انتشاره بارتفاع المستوى الاقتصادي للفرد او بالتاميم الصحي ، كل هذا نتيجته المنطقية الاقلال من الامراض والزيادة من الصحة والاطالة في الاعمار .

اذا كان الانسان المتبدي ليس كما يزعمون احسن صحة ولا اقل مرضا ولا اطول عمرا من الانسان المتحضر ، واذا كان باجماع الكل اقل رخاء اقتصاديا ، وكان في الوقت نفسه اقل علما ومعارف ، فلنات الآن الى الزعم الاستعماري الاخير بانه اكبر سعادة . وهذا ايضا زعم بالغ الخطا والخبث . كيف يكون الجاهل القذر المريض المحتاج اسعد من المتعلم النظيف الموفور الصحة الآمن من غائلة الجوع والعوز ؟ كيف يكون سعيدا من يهدده شبح المجاعة في كل يوم او كل موسم وتضنيه الامراض المنهكة او تفتك امامه بزوجه واطفاله ، وتنغص حياته وترعب فكره المخاوف الخرافية وعقائد السحر والشعوذة ؟

قد يكون هذا المخلوق التعس راضخا لحاله مستسلما لنكده في ذل ابكم يقارب حالة الحيوان الاعجم . لكن هل هذه هي السعادة ؟ لست انكر ان التعلم والاخذ باسباب التحضر قد يجلبان عذابا نفسيا ناتجا عن الشعور بالنقص والاحساس بوجود الظلم والحرمان وما يتبعه من صراع اجتماعي ونضال فكري . ولكن اليس هذا خيرا من الرضوخ والاذعان ، اوليس هو بداية الاصلاح والتحسين ، وهو الذي ينمي المواهب البشرية ويفتق الذهن المخترع ويدفع بالانسانية في طريق التقدم ؟ واين كانت الانسانية تكون لو ظل ابناؤها راضين بحالهم مستسلمين لحظهم الطبيعي ، هل كانت تتقدم كثيرا على نصيب الحيوان الاعجم ؟ ولقد قيل من قبل ان الذي حرك الفلاح الفرنسي الى الثورة الكبرى لم يكن مجرد سوء حاله ، فقد كان غيره من فلاحي اوروبا اسوأ منه حالا ، انما الذي حركه هو احساسه بهذا السوء وانتباهه اليه وادراكه للظلم الواقع به من اثر الوعي الثقافي الذي نشره كتاب القرن الثامن عشر المتحررون في فرنسا .

هذه حقيقة تلك الدعاية المغرضة عن فضل البداوة وجلالها وصحتها وسعادتها . ومن هنا تتجلى للقارىء اخيرا اهمية هذا الموضوع الذي اخترته في المناسبة الراهنة ، فهو ليس مجرد مناقشة اكاديمية او جدل نظري او تصحيح منطقي علمي لخطا فكري شائع ، بل لهذا الموضوع اهمية عملية ، اهمية قومية ، فان من اهم الاسباب لتاخرنا الحاضر ورضانا بحالتنا الراهنة تعلقنا بهذه الفكرة الخاطئة عن فضائل البداوة ورذائل الحضارة ، ورغبتنا في المحافظة على ما نظنه عاداتنا الحميدة وتقاليدنا الفاضلة ، ومعظم عاداتنا وتقاليدنا علم الله شريرة ضارة عظيمة العفن والفساد .

وقد راينا الفريق الاول الذي يستفيد من استبقائنا في وهمنا الكبير ، فريق الاستعماريين ، ولكن لا يغفلنا هذا الفريق عن اشياعه واتباعه وذيوله بين ظهرانينا . فسطوة الاستعمار السافرة قد انسحبت الآن على اي حال ، وحل محلها على خشبة المسرح حكام وطنيون ترتبط مصالحهم بها وهم ايضا من مصلحتهم ان تبقى شعوبهم راضية بحالها عازفة عن السعي الى التغيير والنهوض للتقدم . وهم يخدرونها بنفس الشعارات والاوهام عن تقاليدها الفاضلة واخلاقها الكريمة . ومن هنا نعرف في الصراع الراهن في العالم العربي بين قوى الجمود والرجعية وقوى التحرير والتقدم لماذا يكثر الفريق الاول من استعمال ذلك السلاح فيرمي القوى المحررة بالخروج على الدين ونبذ التقاليد وافساد الاخلاق وامثالها من التهم .

***

لست انكر ـ اخيرا ـ ان بالحضارة المعاصرة كثيرا من النقائص والآثام ، ولست ادعو الى تقليدها في كل نواحيها تقليدا اعمى ، فاني لادرك انها اتخذت كثيرا من الوجهات الخاطئة التي يحمل عليها مفكرو الغرب انفسهم ، وارجو الا يعتقد القارىء انني من اولئك المفتونين بكل شيء في الحضارة الغربية المعاصرة ، الذين يريدون لمواطنيهم ان ينقلوا كل شيء عنها ، فلا ينجحون في اغلب الامر الا في نقل غثائها التافه وبهرجها السطحي ونقائصها الضارة . لكن بالحضارة الحديثة خيرا كثيرا نريده لانفسنا ولشعوب امتنا العربية . نريد علمها وثقافتها ، نريد غناها ورخاءها الاقتصادي ، نريد صحتها ونظافتها ، نريد تهذيبها الفكري ونضجها الفني وارهافها الروحي ، فان من اكبر الاوهام ان نعتقد اننا نحن الشرقيين اكثر « روحانية » من الغربي المثقف ، واغلب روحانيتنا المزعومة اغراق ذليل في السحر والخرافة وعبادة الاوثان وضباب الكهنوت ينحط بنا الى ادنى دركات المادية الغليظة الجافية . ونريد ايضا مستواها الخلقي الارفع ، فالذي لا شك فيه لكل عارف بالاحوال متحر للعدل في حكمه ان الفرد العادي في امة غربية متقدمة هو ارفع سلوكا في تجارب حياته واكثر تهذيبا مع رفاقه والمحتكين به واكبر اخذا لنفسه بدواعي الامانة والانصاف ومراعاة الغير واعظم احتراما للمراة وتقديرا لكرامتها وحفاظا على عزتها الانسانية ، من الفرد العادي عندنا .

هذه هي الحقيقة الاليمة ، برغم كل ما يقوله قائلونا ويكتبه كتابنا ، من ذلك الطالب الذي قدم لي مقالة بداها بقوله « يفخر الغربيون علينا بعلومهم وصناعتهم ، وحضارتهم ومدنيتهم ، ولكننا معشر الشرقيين نمتاز باخلاقنا الرفيعة ، وتقاليدنا الكريمة ، وحرصنا على الشرف الخ ... فالشرق كان وما زال معقل الفضيلة ، والغرب بؤرة الرذيلة الخ ... »

حديقة الصخور

الكتاب الفائز بجائزة مجلة « الحسناء »

لاجمل مجموعة قصص حديثة

بقلم سلوى صافي

في مكتبات لبنان والبلاد العربية

روزنامه

العدد السابع ـ تموز (يوليو) ١٩٦٩ ـ السنة ١٧

* * *

١ سطور من رسالة ..... الدكتور عصمت الى الشباب العربي ..... سيف الدولة

٣ الفضيلة بين البدو والحضر : هل نحن ارفع اخلاقا من الغربيين ؟ ... الدكتور محمد النويهي

٨ زيارة في الليل (قصة) ..... سليمان فياض

١٣ الممثل يخلع القناع (قصيدة) ..... محمد ابراهيم ابو سنة

قرأت العدد الماضي

١٤ الابحاث ..... جلال السيد

١٥ القصائد ..... شوقي خميس

١٦ القصص ..... سامي خشبة

١٧ اغنية للخامس من حزيران (قصيدة) ... محمد الاسعد

١٨ ابعاد البطولة في شعر المقاومة ..... غالي شكري

٢٤ عودة الغريب (قصة) ..... رشاد ابو شاور

٢٦ ناطور الكرم (قصيدة) ..... م. عز الدين المناصرة

٢٧ اضواء على الكفاح المسلح الافريقي ..... حسين شعلان

٣٢ بطاقة للعرس الموعود (قصيدة) ..... الدكتور وصفي صادق

٣٤ خوذة لرجل نصف ميت (قصة) ..... احمد خلف

٣٦ حول لا عقلانية الفلسفة (٢) ..... الدكتور حسام الالوسي

٤٣ السبي (قصيدة) ..... علي الحسيني

٤٤ ادباء معاصرون وناقد معاصر ..... سامي خشبة

٤٩ خطاب من الموتى (قصيدة) ..... حمدي م. مصطفى صالح

٥٠ الحدود والاسوار (قصة) ..... جان الكسان

٥٢ اشارات في طريق « بلوك » ..... حسب الشيخ جعفر

٥٦ مأساة ابي ذر (قصيدة) ..... شاكر العاشور

مناقشات

٦٥ رد على اتهام ..... ممدوح السكاف

٦٦ الى الاستاذ غالي شكري ..... « راصد عراقي »

النشاط الثقافي في العالم

٦٧ الاتحاد السوفياتي ..... حديث عن الثقافة العربية

٦٨ ايطاليا ..... فضل العرب على الغرب
ـ مقابلة مع مورافيا
ـ اضواء على الموسم المسرحي

النشاط الثقافي في الوطن العربي

٧٥ لبنان ..... مشروع الهرم الثقافي

٧٦ ج. ع. م ..... المعرض العام للفنون التشكيلية

الى المرحوم مصطفى صادق الرافعي الذي اذكر له مقالة مدوية بعنوان « اخلاقنا قبل مدنيتهم » ، عقد فيها نفس المقارنة الزائفة بين تفوق الغرب العلمي والصناعي وما يزعمه للشرق من ارتفاع روحي واخلاقي .

ذلك ما نريده من الحضارة الحديثة . فان كنا جادين في طلبه فلا يصدنا عنه ابواق ناعبة تصيح بشر تلك الحضارة وفسادها او بتعاستها وشقائها . فلننظر الى الامام ، ولا نتعلق بذكريات ورديه واهمة عن الماضي الفاضل السعيد ، فما كان ماضينا في معظمه سعيدا ولا فاضلا .

تعقيب

كتبت هذا البحث في مارس سنة ١٩٦٧ ، وبينا اعده للنشر حدثت حرب الايام الستة فصرفتني عن نشره . واليوم اذ اعيد النظر فيه اجد الظروف صالحة مرة اخرى لنشره ، بل ربما كانت حاجتنا الآن اشد الى العبرة التي يحتويها .

فمنذ هزيمتنا القاسية في تلك الحرب ، اخذ عدد متزايد من متعلمينا يدرك ان تلك الهزيمة لم يكن سببها مجرد ضعف عسكري ، بل ان ضعفنا العسكري نفسه انما كان الحاصل النهائي لضعفنا العام في مختلف الجوانب الحضارية . او قل بعبارة صريحة ان اسرائيل ليست متفوقة علينا في الاعداد العسكري وحده ، بل هو تفوق حضاري شامل، نتج من انها اكثر اخذا باسباب الحياة المتمدنة ، بينا نحن في معظم جوانب حياتنا لا نزال على قدر كبير من التخلف .

ومغزى هذا ان سبيلنا للحاق باسرائيل ـ دعك من التفوق عليها ـ لن يكون بالبناء العسكري وحده ، على اهمية هذا ولزومه ، بل بالبناء الحضاري الشامل . وذلك بأن نزيد من جهودنا في التخلص من مخلفات قرون التدهور ، والقضاء على « الرواسب المتعفنة للنظام القديم » ، ونقبل بخطى اكثر جرأة واكبر سعة على متعدد اسباب الحضارة الحديثة، من ثقافية وتكنولوجية ، واقتصادية واجتماعية .

هذا ما يكاد يجمع عليه افراد طبقة المثقفين بيننا ، وهم ينتسبون الى صفهم مزيدا من الانصار من بين افراد الشعب الذين انتبه وعيهم عقب الهزيمة واخذوا يدركون حقيقة الحال في اضمحلالنا الحضاري الشامل ، بسبب ما اعقب الهزيمة من حركة نقد ذاتي متزايدة القوة . الا ان هناك عائقا كبيرا لا يزال يعوق الكثيرين عن الاقتناع بهذا المغزى ، وهو اعتقادهم ان الحضارة تحمل في طياتها شرا لا محيد عنه ، هو الانحلال الاخلاقي .

فهؤلاء يقرنون الحضارة بالفساد الخلقي ، ويعتقدون ان كل امة تتحضر لا بد ان تدفع ضريبة هذا التحضر من اخلاقها . وهم يتوهمون اننا نحن الشرقيين ، برغم تخلفنا العلمي والمادي الذي يسلمون به ، احمد من الغرب اخلاقا واشرف تقاليد واقوى تشبثا بعرى الفضيلة ، فالشرق عندهم كما قال ذلك الطالب معقل الفضيلة ، والغرب بؤرة الرذيلة ، وهم كما قال الرافعي يؤثرون اخلاقنا على مدنية الغربيين .

فانا ارجو ان يكون لهذا البحث بعض الاثر في القضاء على تلك الفكرة الخاطئة الضارة ، بعدما سقت في التدليل على خطأها وضررها، وتحليل للاسباب التي تدفع الكثيرين منا الى التمسك بها ، من حنين رومانسي الى الماضي وايمان بخرافة العصر الذهبي الذي ولى ولن يعود ، او اعتقاد بأن الانسان خير بطبعه والمجتمع هو الذي يفسده ، او انخداع بتمويه الدعاة الاستعماريين وعملائهم الذين من صالحهم ان يبقونا على تخلفنا . وبهذا نزيل عاملا من اقوى العوامل التي لا تزال تقعد بأمتنا العربية عن اللحاق بركب الحضارة السائر الى الامام . ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد .

القاهرة — **محمد النويهي**